المشهد

العدد 336 – السنة الثالثة عشرة -الإثنين 7 أكتوبر 2024 م الموافق 4 ربيع الثاني 1446 هـ

قالت العرب

لا تلبَس الدنيا، فإنّ لباسَها سَقَمٌ،
وعَرِّ الجِسمَ من أثوابها
أنا خائفٌ من شرّها، مُتوقّعٌ إكآبَها، لا الشُّرْبَ من أكوابها
فلتفعلِ النفسُ الجميلُ، لأنّه خيرٌ وأحسنُ، لا لأجلِ ثوابِها

(أبو العلاء المعري)

الإعدام.. ولاء وأخواتها وفقراء ينفذ عليهم الحكم

مطالب عالمية بإلغاء العقوبة وإجراءات غامضة تسبق التنفيذ فى مصر

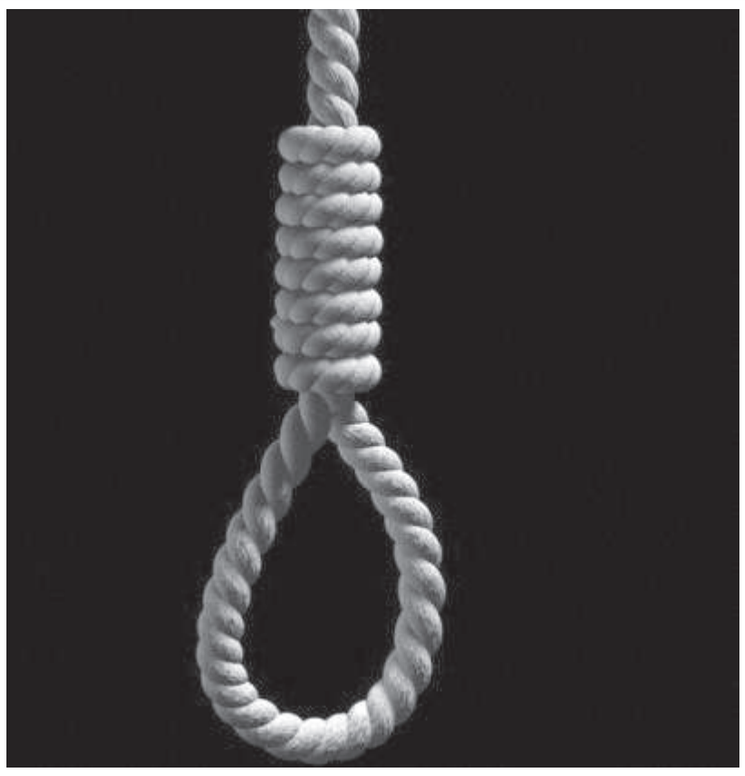

مشهد ١

– قالت لي: ولاء «اسم مستعار» اللى فى المخصوص «عنبر المحكومين بالإعدام» لمحت ملايتك البامبى «اللون الوردي»، فسألتنى بتاعة من.. قلتلها بتاعة الصحفية اللى فى عنبر خمسة.

قالتلى والنبى يا شهد (اسم مستعار) استأذنيهالى افرشها يومين..

«باقتضاب» وقلب مقبوض رديت: طبعا..

بعد يومين.. عادت لى بـ «الملاية» وهى بتقولى خلاص مبقتش محتاجاها.. راحت للى أحسن منى ومنك..

المشهد السابق حدث بالفعل وحديث مر عليه أعوام دار بينى وبين المنوطة بغسل غسيلى ونشره فى فناء السجن مقابل (أروسه سجاير) فى الشهر.

مشهد سبب المرار فى حلقى لسنوات، وشكل الكثير من ذاكرتى عن السجن والفقراء وعقوبة الإعدام.

فى الحقيقة كانت ولاء فى عمر الثامنة عشر عندما هيأ لها شيطانها بإيعاز من خطيبها الأكبر سنا إمكانية سرقة عمتها الطاعنة فى السن، حتى يتمكنا من إتمام زواجهما المتعثر، ومواجهة الأهل الذين يعارضون الزواج نظرا للعسر المادى الذى يلازم العريس الشاب؟

ولكن حظهما العاثر، وتهورهما أدى إلى لجؤهما لقتل العمة عبر خنقها، بعد أن حاولت الصراخ والاستنجاد بالجيران، بينما يحاولان الفرار بمصوغاتها الذهبية.

كانت عقوبة الإعدام شنقا لولاء وخطيبها هى ما رأته المحكمة حكما عادلا على ما اقترفا من ذنب، وذلك بعد أن انتهيا من كافة درجات التقاضى المعمول بها فى تلك الحالات، وظلت ولاء نزيلة ما يطلق عليه بالسجن عنبر «المخصوص» لسنوات، تتعذب فى انتظار حكمها النهائي، بينما تتشح باللون الأحمر المقبض، الموصوم به نزلاء ذلك العنبر الشهير.

ظلت ولاء لسنوات فى انتظار ساعة الصفر، حيث لا يعلم أبدا المحكومون، أو آيا من ذويهم بموعد التنفيذ، حتى يفاجأون ذات يوم، إما خلال الزيارة كما جرى مع والدة ولاء، التى بلغت بخبر إنهاء حياة ابنتها بينما هى تستعد لرؤيتها، وأحيانا عبر الاتصال الهاتفي، لاستلام الجثمان.

شخصيا عايشت بعضا من تلك الأحداث، والإجراءات الملازمة لها، والزحام الذى أصاب ذلك العنبر الكئيب، بحسب قدامى السجينات، اللاتى صرحن أنه طالما كان هذا العنبر خاليا، إلا بالقليل من المحكومات، كما أن تنفيذ الحكم نفسه كان أمرا بالغ الصعوبة، حيث كان يتطلب الأمر توقيع رئيس الجمهورية بنفسه، وهو ما كان يتجنبه كثيرا الرئيس المخلوع حسنى مبارك، وذلك بعكس العهد الحالي، حيث ازدحم العنبر بشكل غير مسبوق، ومنذ تاريخ إنشاء سجن النساء فى منطقة القناطر الخيرية منذ العام ١٩٥٧.

أما مواعيد التنفيذ المفاجئة فكان يلازمها عددا من الإجراءات المعروفة، منها قطع الكهرباء عن السجن بأكمله بشكل مفاجئ، إذا تم اتخاذ قرار ترحيل المحكومات بالإعدام ليلا، حيث يتم ترحيلها إلى أحد السجون المعروفة بوجود ما يسمى بالطبلية، والمجهزة لتلك الحالات، والتى من أشهرها سجن الاستئناف.

مع حلول كل ليل.. وعلى مدار سنوات دهرية تعيش المحكومة بالإعدام، شعورا لا يمكن وصفه، ورعبا لا يضاهيه إلا انقطاع الكهرباء المفاجئ، إذ يعنى الأمر أن الاختيار وقع على إحداهن أخيرا، فيعشن دقائق وصفتها إحداهن بالسنوات شديدة الطول، والسواد فى الشعور بها، ووصفتها أخرى بشعور الماشية ليلة العيد، وهى تنازع الخوف، واليقين من النهاية المحتومة، وتطلق أصواتا لا يخطؤها البشر، وإن كانوا لا يلقون لها بالا.

ولكن الحق يقال فالكشف الطبي، والتثبت من حالة «الأضحية» ضرورة يفرضها القانون، حيث يقوم رجال الأمن وبمساعدة حارسات السجن بـ «تكتيف» الضحية للكشف عليها، والتأكد من حالتها الصحية كشرط من شروط توقيع عقوبة الإعدام.

إعدام.. للفقراء فقط !

وبينما استنفدتنى تلك المشاهد واسترجاعها راعنى مشهد آخر وخبر جديد يعنى بنجاحات، ومناصب يتقلدها رجل الأعمال والمدان بقتل المطربة سوزان تميم، هشام طلعت مصطفى الذى وثقت كاميرات المراقبة فى دبى دلائل على وقوع تلك الجريمة عبر رجله الضابط السابق محسن السكري، فكان السجن لخمسة عشر عاما من نصيب هشام، وفيما بعد تم تخفيض العقوبة لثمانى سنوات، وهاهو يملأ الإعلام صخبا بمشاريعه، وأبنيته الفاخرة التى لا تنتهي، وإنجازاته التى لا تصب إلا فى مصلحته الشخصية، اما السكرى الذى تم توثيق جريمته بالصوت والصورة فخرج بعد عشرين عاما، ليبدأ حياته من جديد.

هشام ليس المثال الوحيد على أبناء الطبقة المخملية الذى لا يعرف له عشماوى طريقا حتى وإن قام بالترصد لضحاياه، وخطط لإنهاء حياتهم، فجريمة أركاديا التى جرت وقائعها فى مطلع الألفينات، أحد تلك النماذج التى يتذكرها جيلي، حين قتل عمر الهوارى ابن العائلة المعروفة محمود محيى روحى رجل الأعمال الشهير، فى قلب «المول» الذى لا يعرف له سبيل إلا أبناء الطبقة المخملية، وانتهت بالحكم على القاتل بعقوبة المؤبد.

الإعدام بين المحلى والعالمي

ترى منظمة العفو الدولية أن عقوبة الإعدام هى أقصى أشكال العقوبة القاسية واللا إنسانية والمهينة، وتعارض المنظمة عقوبة الإعدام فى جميع الحالات بدون استثناء بغض النظر عن طبيعة الجريمة أو ظروفها؛ أو الشعور بالذنب أو البراءة أو الخصائص الأخرى للفرد؛ أو طريقة تنفيذ الإعدام.

النضال العالمى ضد هذه العقوبة، كان نتيجته تبنى المجتمع الدولى العديد من الصكوك التى تحظر استخدام عقوبة الإعدام، من بينها التالي:

– البروتوكول الاختيارى الثانى الملحق بالعهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، والذى يهدف إلى إلغاء عقوبة الإعدام.

– البروتوكول رقم ٦ الملحق بالاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان، والمتعلق بإلغاء عقوبة الإعدام، والبروتوكول رقم ١٣ الملحق بالاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان، فيما يتعلق بإلغاء عقوبة الإعدام فى جميع الظروف.

– بروتوكول الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان لإلغاء عقوبة الإعدام.

وتعد كل من الصين، وإيران، والولايات المتحدة، ومؤخرا مصر من الدول الأكثر تطبيقا لتلك العقوبة.

فى مصر خصوصا كشفت منظمة العفو الدولية فى التقرير السنوى لها حول عقوبة الإعدام عام ٢٠٢١ بأن عدد عمليات الإعدام المسجلة فى مصر ازداد ثلاثة أضعاف فى عام ٢٠٢٠ ما جعلها الدولة الثالثة فى العالم الأكثر تنفيذاً لعقوبة الإعدام بعد الصين وإيران.

وبحسب المفوضية المصرية للحقوق والحريات التى تعمل على هذا الملف محليا، تصاعدت وتيرة تنفيذ الحكم بشكل ملفت منذ العام ٢٠١٤ وحتى ٢٠٢١، حيث كانت ١٥ حالة، ووصلت إلى ١٧٦، فى حين رصد تقرير إحصائى آخر فى الفترة ما بين يناير، وديسمبر ٢٠٢٣ صدور ٤٥٤ حكماً فى ملف الإعدام فى كافة مراحل المحاكمات لمختلف القضايا الجنائية.

الخبير فى ملف الإعدام الحقوقى دكتور شريف عازر أضاف ملاحظاته الخاصة بتطبيق تلك العقوبة فى مصر، وقال « لاتزال أحكام الإعدام فى مصر تصدر فى محاكمات جماعية، يزيد من ذلك استخدام محكمة النقض للنظر فى القضايا دون إحالتها لمحكمة جنائية، كما كان الحال من قبل».

ويلفت عازر إلى انتهاكات جسيمة تخص الأمر منها عدم إبلاغ الأهالى بيوم الإعدام، وعدم السماح لهم بالزيارة النهائية، فى حين لاتزال السلطات المصرية تستخدم التعذيب لانتزاع الاعترافات التى يمكن أن تؤدى إلى تلك العقوبة، كما ظهر فى قضية الأب اشعياء.

بالتوازى وثقت حملات المفوضية أيضا انتهاكًا صارخا للحق فى الدفاع، حيث لم يكن للعديد من المتهمين أى تمثيل قانونى يوم إصدار الحكم النهائي.

فى فلسفة العقوبة أيضا يؤكد شريف عازر أن عقوبة الإعدام لا تردع الجريمة، حيث تم دحض هذا الادعاء مرارا وتكرارا، فليس هناك أى دليل على أن عقوبة الإعدام أشد ردعاً فى الحد من الجريمة أكثر من السجن المؤبد، كما حذر من استخدام العقوبة استنادا على اعترافات شابها تعذيب المتهمين، وعدم التمثيل القانونى المناسب.

من جانب آخر يشير عازر على ما أثبتته كافة التجارب المحلية، والدولية، من ان عقوبة الإعدام عقوبة تمييزية، حيث يكون المنتمون للطبقات الدنيا، والأكثر فقرا هم الأكثر عرضة لتطبيق عقوبة الإعدام، معتبرا أن نقص أو عدم الحصول على التمثيل القانونى الجيد سببا مهما لحدوث ذلك، فللعدالة رسوم مادية ضخمة يجب دفعها مقدما للحصول على خدماتها بما فيها حق الدفاع.

وفى ظل أن الإعدام عقوبة لايمكن ردها، ووسط مناخ سياسى يشوبه القمع، يخشى دائما استغلال العقوبة لمعاقبة المعارضين السياسيين، كيفما يرى عازر.

النساء وعقوبة الإعدام

سالى طفلة صغيرة يتيمة تربت فى إحدى دور الأيتام فى محافظة الإسكندرية، حيث مكثت هناك إلى أن أصبح عمرها ١٩ عاما ليتم تزويجها من أحد الأشخاص كثير التردد على السجن لينتهى بها الحال مطلقة فى شوارع الإسكندرية لمدة ٨ أشهر قبل أن تنتقل إلى بولاق الدكرور حيث التقت بزوج آخر وهو تامر سعيد وهو المتهم الثانى فى القضية، وتزوجا بالرغم من عدم وجود أى مصدر عمل أو دخل له.

اعتاد زوج سالى إدمان المخدرات، حيث كان يحصل على ثمن شرائها من سالى التى لجأت للخدمة فى البيوت لسد احتياجاتها اليومية. أثناء حمل سالى فى الشهر الثامن قام زوجها بتحريضها على سرقة مخدومتها كى توفر له مالاً لشراء المخدرات وتأمين مصاريف ولادتها التى أوشكت، إلا أنه كما يحدث عادة فى مثل هذه السرقات قامت سالى بقتل مخدومتها خوفا من أن تبلغ عنها الشرطة.

واتهمت سالى وزوجها بتهم القتل العمد والسرقة والاستيلاء على أموال الضحية وحيازة سلاح أبيض دون ترخيص، أنجبت سالى طفلة أثناء المحاكمة ثم أخذت الطفلة منها ولم ترى طفلتها منذ أكثر من ٣ سنوات ولم تتلق سالى زيارة واحدة حيث لا يوجد لها أى أهل.

وطبقاً لتوثيق حملة أوقفوا عقوبة الإعدام فى مصر التى تبتها المفوضية المصرية للحقوق والحريات، لم تتلق سالى حق التمثيل القانونى الكافى الذى قد يسمح لها بتخفيف عقوبة الإعدام. فلم يحضر معها محامى منذ لحظة القبض حتى مثولها أمام محكمة الجنايات التى قامت بانتداب محام لها. كما لم تقم النيابة أو المحكمة بالاطلاع على الملف الخاص بسالى فى وزارة التضامن الاجتماعي، كامرأة نشأت فى دور رعاية أيتام، كما لم تقم النيابة أو المحكمة باتخاذ أى إجراءات لفحص الوضع النفسى والعقلى لها.

وحاليا تنتظر سالى تنفيذ حكم الإعدام، فيما حكم على زوجها بالمؤبد..

ترى الباحثة فى برنامج الإعدام بالمفوضية المصرية إيمان وسيم أن قصة سالى هى نموذج دال على كثير من أحكام الإعدام فى مصر، فسالى المرأة المستضعفة، الحامل، الفقيرة المعرضة للعنف طوال الوقت، تحولت فى لحظة من مجنى عليه إلى جانية.

وسيم تلفت إلى أن مقارنة اعداد المنفذ بحقهم عقوبة الإعدام بين الرجال، والنساء عملية ليست منطقية، فالجرائم التى تستدعى هذا الحكم وهى ١٠٠ جريمة تقريبا فى قانون العقوبات المصري، أغلبها يقوم بها الرجال، نظرا لطبيعتها كجرائم الثأر، او السرقة، أو الشجارات، أو الناتجة عن إدمان مواد مخدرة تسلب الذهن، والمنطق، لذا فالنظر لكل قضية بذاتها هو الوجه الأمثل للتوصل إلى حقيقة موقع النساء من تلك العقوبة.

وجود النساء فى جرائم تستدعى تلك العقوبة بحسب منظور المشرع المصري، غالبا مايكون عاملا مساعدا، مثل حالات مشاركة الرجال السرقة، أو قتل الزوج بمشاركة عشيق، وغالبا العنف الأسرى الواقع على المرأة يمثل عاملا أيضا مهما، وفى أغلب الأحيان بحسب وسيم تكون المرأة واقعة تحت سيطرة الرجل، كحالة سالى التى ضغط زوجها عليها لسرقة مخدومتها.

تلفت وسيم إلى أن الأحكام خصوصا فى حالة الزنا، او بالاشتراك مع عشيق، غالبا ما تتدخل فيها نظرة القاضى الأخلاقية، وفى كل الأحوال يظل للفقر حضورا ضخما فى تاثيره على ارتكاب جرائم تؤدى لإنزال عقوبة الإعدام على المتهمين، النساء منهم خصوصا، نظرا لأوضاعهم الاقتصادية، والاجتماعية الأضعف.

حضور العنف فى قضايا النساء عامل بالغ لا يمكن التغاضى عنه أيضا..

فى هذا الصدد أصدرت المبادرة المصرية ورقة بحثية عام ٢٠٢١ حول قضايا إعدام النساء فى مصر، لفتت إلى ان نسبة كبيرة من النساء المحكوم عليهن بالإعدام هن نساء تعرضن للعنف، حيث تتحول المجنى عليها فى هذا السياق إلى جانية فى بعض الأحيان – وهى حقيقة غير مرئية فى قصص الكثير من النساء المتهمات بالقتل

أوردت المبادرة فى ورقتها أن الكثير من الدول تتعرض فيها النساء إلى التمييز المبنى على «الجندر» فى عدة مراحل أثناء التقاضي، أول أشكال هذا التمييز هو صعوبة إثبات التعرض للعنف المنزلى وذلك بسبب غياب القوانين التى تتعامل مع هذا النوع من العنف والانتهاكات التى تحدث داخل المنزل. مرورًا باقتصار مفهوم الدفاع عن النفس لدى النيابة والهيئة القضائية على وجود إصابات بالغة وظاهرة على المجنى عليها أولًا، وثانيًا على وجوب ارتكاب فعل الدفاع عن النفس فى لحظة وقتية تتعرض فيها السيدة إلى ضرر يؤدى إلى آذى بدني/ جنسي، أو إلى وفاة وهذا التعريف ليس فى مضمونه ديناميكيات العنف المنزلى والجنسى الواقع من المعارف على نساء من ضمن عائلاتهن، سواء من الأزواج أنفسهم أو الذكور الأقارب.

من قبل صرحت مفوضة الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان، ميشيل باشيليت، بأن المساواة بين الجميع أمام القانون، والمساواة فى حماية القانون دون تمييز، تتطلب عدم فرض عقوبة الإعدام بطريقة تمييزية.

وقالت باشيليت: «تواجه النساء تمييزاً بين الجنسين فى تطبيق عقوبة الإعدام. على سبيل المثال، فيما يتعلق بالسلوك الذى لا يواجه الرجال الإعدام بسببه، أو قد لا تتم حتى مقاضاتهم لأجله. تظهر الأبحاث أنه لا يتم الحكم على النساء على أساس جريمتهن فحسب، بل لأنه يُنظر إليهن على أنهن قد خُنّ الأدوار التقليدية للجنسين».

كما صرحت مفوضة حقوق الإنسان بأنه «فى الحالات التى تنطوى على العنف المنزلي، قد تعانى النساء من الاضطهاد القائم على النوع الاجتماعى على مستويات متعددة».

وتابعت قائلة إنه «لا يزال من النادر للغاية أن يتم التعامل مع العنف المنزلى والعنف الجنسى كعوامل مخففة فى أحكام الإعدام». وحتى فى البلدان التى تصدر أحكاما تقديرية لعقوبة الإعدام، «غالبا ما تتجاهل المحاكم أو تستبعد أهمية العنف القائم على النوع الاجتماعي».

تمييز على أساس الجنس يجعل النساء أقل حظا فى الإفلات من حبل المشنقة

تحقيق : أسماء زيدان

الكتاب ينتمي إلى عالم «الأدب غير الخيالي» الباحث عن الحقيقة بتقنيات أدبية

"عباقرة ومنتحرون" ينفض الغبار عن مواهب مصرية طواها النسيان

يعد كتاب خيرى حسن «أرواح على الهامش... عباقرة ومنتحرون» (دار ابن رشد). ضمن الأدب الموسوم بـ"الأدب غير الخيالي" "literary nonfiction" ويقصد به الكتابات النثرية التى تستند على الأحداث والشخصيات الحقيقية. وبعبارة أخرى هو الأدب القائم على الحقائق ولكن مكتوب بطريقة إبداعية، مما يجعله ممتعًا للقراءة مثل الإبداع الخيالي، وهذا النوع الأدبى يقتبس العديد من التقنيات الخاصة بالأدب الخيالي، فبه شخصيات، وصراع وحبكة، وسياق تدور فيه الأحداث، ولغة مجازية أيضًا. مثل السير الذاتية أو السير الغيرية/ التراجم أو المذكرات، ويشمل أيضًا أدب الرحلات، والكتابة عن العلوم والطبيعة والرياضة والتأريخ الأدبي، وكذلك الحوارات والمقالات الصحفية التى يتم فيها التناول بشكل أدبي، فيما يسمى بالصحافة الأدبية literary journalism وهذا النثر يستخدم التقنيات الأدبية المرتبطة عادة بالأدب الخيالى للحديث عن الأشخاص والأماكن والأحداث فى العالم الحقيقى دون تغيير الحقائق.على عكس الأدب الخيالي، الذى يقدم معلومات أو أحداث أو شخصيات من المتوقع أن تكون خيالية جزئيًا أو إلى حد كبير، أو تترك مفتوحة فى كيفية إشارة العمل إلى الواقع.

وفى الأدب غير الخيالى عادة ما يُعتبر تضمين المعلومات التى يعرف المؤلف أنها غير صحيحة، عمل غير نزيه أو غير أخلاقي. وربما من أشهر الذين كتبوا فى هذا النوع الصحفية البيلاروسية «سفيتلانا أليكسييفيتش» التى حازت على جائزة نوبل للأدب على هذا النوع الأدبى عام ٢٠١٥.

تقنيات سردية أدبية

يعتمد كتاب «أرواح على الهامش» على التقنيات السردية الروائية واللغة الأدبية المجازية، فى حكيه الذى يصفه بـ«النصوص» لسيرة تسعة شخصيات مصرية عاشت فى القرن الماضي، تجمع بينهم الموهبة، والنهايات التعيسة، معركة بين الموهوبين وأنصاف الموهوبين، فيهم من انتحر، وفيهم من اعتقل، وفيهم من أودع «السرايا الصفرا/ مستشفى المجانين»، وفيهم من دهسته عجلات السيارات غيلة وغدرًا، وفيهم من سقط فى شرك المخدرات، وفيهم من لم يجد حلا لمشاكله مع العالم وتجاهل المجتمع له سوى بشرب «بوليس النجدة»، حكايات صيغت بلغة أدبية فيها من الاستقصاء الصحفى والعمل الدؤوب الباحث عن الحقيقة لا شيء سواها. ينفض الغبار عن شخصيات رحلت ولم يعد يتذكرها أحد، وربما هذه واحدة من أهم مميزات الكتاب فى أنه اختار أرواحا كما يقول العنوان هامشية، لم يسمح لها مع ما كانت تمتلكه من مواهب فذة أن تدخل فى دائرة المتن المملوء بأنصاف الموهوبين الذين لا يسمحون أن يدخل وسطهم ما يكشف زيف وضعف موهبتهم.

والعنوان الفرعى للكتاب «عباقرة ومنتحرون»، جاء بمعناه المجازى فمن بين الشخصيات التعسة التى فى الكتاب فقط شخصيتان انتحرتا بينما بقية الشخصيات ربما يصح وصفها بأنها قد اغتيلت على يد سلطة تعادى التعدد وأى صوت يخالف صوتها، لا تتورع فى أن تكيل التهم له وتلقى به فى غياهب السجون أو مستشفيات المجانين أو ما ترى من صنوف أخرى من العذاب لاتفرغ أبدًا حيالها. الانتحار الذى شغل مصر فى الآونة الأخيرة بسبب انتشاره بين الشباب تحت عجلات المترو، أو القفز من أعالى الكبارى المارة على نهر النيل، أو حتى إلقاء أنفسهم من بروج مشيدة مثل برج القاهرة، مما جعل مصر الأعلى فى المنطقة العربية وفى قارة إفريقيا فى نسب الانتحار، وكأن خيرى حسن يريد أن يقول إن الظلم المجتمعى الدافع إلى الانتحار ليس جديدًا على مصر، وأفقدها الكثير من قواها الناعمة والمواهب التى كان بإمكانها أن تقدم الكثير لبلادها.

كلهم أعدائي

ويبدأ خيرى حسن بالحديث عن الروائى والقاص «رجاء عليش» (١٩٣٢: ١٩٧٩م) الذى تأخذ قصته وحدها نحو ثلث الكتاب، وبذل المؤلف جهدًا كبيرًا فى إماطة اللثام حول تلك الشخصية، مستعينًا آليات السرد الروائى مثل تقنية الإرجاع فهو تارة يعود إلى زمن الذى عاش فيه وبالتحديد آخر ثلاثة أشهر من حياته فى عام ١٩٧٩، عودة إلى الماضى يتداخل معها الحاضر ورحلة خيرى حسن لمعرفة ملابسات انتحاره مع من عايشوه، يتواصل مع أسرته التى ترفض الحديث عنه، يعود إلى أرشيف صحيفة الأخبار ينبش فى كل مكان ويطرق باب كل من يظن أن لديه معلومة تفيده. يعتمد على آلية التركيز أو إبطاء علمية الوصف كما يطلق عليها الناقد الشكلانى الروسى «شكلوسفكي» (١٨٩٣: ١٩٨٤م) للكشف عن الحالات الفارقة، فتقنية تطويل الحدث والتركيز عليه تدفعنا إلى أن نولى تلك

الجزئية اهتمامًا أكثر، وتسقط عنه الألفة وتجعلنا ننظر إليه بزاوية جديدة تعيد للحدث طزاجته ونقاءه الأول. ورحلة بحث المؤلف لا تتوقف عند عالم الأحياء فقط بل إنها تمتد لتغوص فيما كتبه المؤلف لتستخرج كيف خطط لإنهاء حياته فى عمليتن له الأولى مجموعة قصصية «لا تولد قبيحًا» والثانى رواية «كلهم أعدائي».

يتمتع الأديب محمد رجاء عليش بلغة شاعرية جزلة رصينة عانى من التهميش لم يلق بدًا تمتد لتنتشله من بؤسه، أهدى كتابه إلى العديد من المؤسسات لم تنشر خبرًا حتى واحدًا عنها، مرة واحدة نجحت محاولاته الفاشلة حين أهدى لمصطفى عبدالله رئيس تحرير «أخبار الأدب» فى تلك الفترة يقول له فى الإهداء «وزعت شبابى على نساء لم يحببنى، ومنحت صدقاتى لرجال خانونى، وخسرت على طوال الخط»، فنشر عنه خبرًا جعله يؤجل الانتحار الذى خطط له لثلاثة أشهر، حتى انتحر فى الأخير بطريقة درامية إذ فجَّر شقته، وفى وأطلق على رأسه الرصاص فى سيارته الخاصة، وأرسل رسالة إلى النائب العام يخبره فيها بأسباب انتحاره إنه جحود المجتمع له، وتبرع بثروة طائلة للمؤسسة التى نشرت خبرًا عن أعماله تقدر بالملايين وكذلك لاتحاد الكتاب المصريين يطالبهم فيها أن يستغلوها فى عمل جائزة باسمه للأدباء الشبان الموهوبين التى أغلقت عليهم كل الطرق من أجل الوصول ونيل الاعتراف الأدبي، إلا أن تلك الوصية رفضت لأن فى وجه نظر المؤسسة التى أوكل لها هذه المهمة قد مات منتحرًا كافرًا.

وتلك الحكاية تكشف عن الدور الخطير الملقى على عاتق النقاد الجادين فى البحث عن الأقلام الشابة ودعمها بالكلمة، فالنقد رسالة قد تنقذ حياة إنسان، إن تخلت عن «الشللية»، والبعد عن الكسل بالبحث عن إبداع الشباب، الذين أغلقت المؤسسات الكبرى الباب فى وجههم.

بوليس النجدة

والشخصية الثانية التى انتحرت هى الممثل «عبدالمنعم إسماعيل» الذى اشتهر بأداء دور ابن البلد فى العشرات من الأفلام، انتحر بشرب "بوليس النجدة" وهو نوع من المبيدات الحشرية، بسبب الفقر وعدم إسناد المخرجين له أى أدوار، ويصحح "خيري" طريقة انتحار هذه الممثل على عكس ما هو شائع بأنه ألقى بنفسه فى النيل فى عام ١٩٧٠، بينما الصحيح أن انتحر فى ١٩٦٦ وذلك بالرجوع إلى الصحف التى نشرت أخباره فى هذه الفترة. أما الشخصية الثالثة التى كان انتحاره اختيارًا رغم أنه حى حتى الآن اللاعب المصرى «محمد عباس» الذى يحكى بأنه كان يفوق اللاعب المصرى الشهير محمود الخطيب موهبة إلا أنه اختار طريق المخدرات، حتى ألقى القبض عليه وتم سجنه.

زوار الفجر

والقسم الثانى من المنتحرين فى الكتاب يتعلق بهؤلاء الذين أفرط النظام فى تعذيبهم فهذا هو الصحافى «أبو الخير نجيب» الذى قضى عمرًا فى سجون جمال عبدالناصر نحو ١٧ عامًا لأن طالب بالديمقراطية، وقد كان هذه الحكم تخفيفًا عن حكم إعدام صدر بحقه بتهمة الخيانة العظمى ثم لقى حتفه بعد خروجه تحت عجلات أتوبيس نقل عام، وهناك الشاعر المصرى «زكى عمر» صاحب أغنية «مدد مدد شدى حيلك يا بلد» التى سطا عليها أحد الشعراء ونسبها نفسه، هذا الشاعر الذى احتضنته سجون «عبدالناصر» وحين خرج منها سافر إلى اليمن فى عدن ليموت غرقًا هناك.

ويعود ما يطلق عليهم فى مصر «زوار الفجر» ليعتقلوا المفكر «إسماعيل المهداوي» لكن هذه المرة ليأخذوه إلى مستشفى المجانين ليقضى فيها سنوات طويلة.

وينتهى الكتاب بقصة ذات طابع رمزى وإن كانت حقيقية تجسد ما تعانيه المواهب فى مصر من إهمال فتضيع على البلاد ثروات كبيرة بهم، منهم ذلك اللاعب الذى يدعى «محمد مرسي» كان يشهد له بالبراعة ويهتف باسمه فى كل مكان يلعب فيه فى شارع أو مدرسة وأنه سيكون الخطيب الجديد، لكن هذا الحلم مع ما ضاع من أحلام ولم يبق شيئًا.

وفى الأخير فى إن كتاب «أرواح على الهامش» مثال جيد لما يعرف بالصحافة الأدبية التى تقع ضمن دائرة الأدب غير الخيالى خاصة فى قصته الأولى عن «عليش» ومما يأخذ عليه فقط غياب الترتيب فى شخوص المسرود عنها لا بسياق زمنى أو أبجدي، وغياب الوحدة الموضوعية للشخصيات المتناولة، فكان أولى بالعنوان الذى يتناول فكرة «عباقرة ومنتحرون» أن نتناول هؤلاء العباقرة المنتحرون فقط وهم كثر وكان يمكنه أن يوسع تلك الدائرة لا على المصريين فقط ويضم إليها شخصيات مبدعة من مختلف الأقطار العربية، وكان من الممكن تخصيص كتاب منفصل للحديث عمن عانوا من وطأة «زوار الليل» من المبدعين، وآخر لهؤلاء الكتاب الذين عانوا من التهميش من المبدعين، وآخر لمبدعين رحلوا فى حوادث سير أو قتلا على يد جاهل لا يدرك قيمتهم، كل ذلك من أجل إعطاء الكتاب وحدة موضوعية وتيمة رئيسية متماسكة. خاصة مع كتاب يتمتع بلغة سلسة أدبية واختار قضية مميزة كى يناقشها فى الصراع الأبدى بين الواهبين وأنصاف الموهوبين.

د. عبدالكريم الحجراوي